



بدايات العثمانيين بين الفراغ التاريخي والصناعة الدرامية

” أرطغرل: تاريخ مضطرب لم تستطع الدراما ترميمه.“

يكاد يجمع عددٌ كبير من المؤرخين المعترين على أن تاريخ أرطغرل تحيط به فجوة واسعة في معلوماته، لا يمكن ردمها بسهولة، مهما تعددت المحاولات اللاحقة لتجميله أو إعادة بنائه. فالشخصية التي قُدمت بوصفها ركيزة تأسيسية للدولة العثمانية، تفتقر في حقيقتها إلى حضورٍ موثقٍ في المصادر المبكرة بل إن كثيرًا، من تفاصيلها الدينية، وأصولها العرقية، إلى أدوارها

السياسية والعسكرية؛ تبقى محل شكٍ عميق. ولا يقف الأمر عند حدود الغموض، بل يتجاوز ذلك إلى احتمال كون هذه الشخصية قد أُعيد تشكيلها لاحقًا ضمن سردية صُنعت بعناية، تهدف إلى تعظيم التاريخ العثماني وربطه بالإسلام، وإنتاج نموذجٍ بطولي يُغرس في الوجدان الجمعي، لا لغايات معرفية، بل لتوظيفه سياسيًا وثقافيًا في تشكيل الولاءات.

إننا أمام حالةٍ لا يُعاد فيها اكتشاف التاريخ، بل يُعاد اختراعه. فعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بُذلت لترميم هذه الروايات، سواء عبر الكتابات الحديثة أو الإنتاج الدرامي، فإنها لم تستطع أن تصمد أمام النقد التاريخي الصارم. فالدراما، مهما بلغت قوتها، تظل عاجزة عن تعويض غياب الوثيقة، أو سدّ الفراغات البنيوية في السرد التاريخي. وقد أشار إسماعيل ياغي بوضوح إلى هذه الإشكالية حين أكد أن التاريخ المبكر للعثمانيين يكتنفه الغموض، وتختلط فيه الروايات التي تقترب من الأساطير أكثر مما تقترب من الحقائق. هذا الاعتراف لا يمثل رأيًا هامشيًا، بل يعكس حالة من التردد والانقسام داخل الوسط التاريخي نفسه. فالمؤرخون بحسب ياغي انقسموا إلى فريقين: فريق يشكك في هذه الروايات ويرى فيها بناءً لاحقًا، وآخر يدافع عنها ويمنحها صفة الحقيقة.

لكن وجود هذا الانقسام ذاته دليلٌ على هشاشة الأساس الذي تقوم عليه السردية. كما أن الاضطراب لا يقتصر على شخصية أرطغرل وحدها، بل يمتد إلى جذور نشأة الدولة العثمانية نفسها. فالروايات التي تتحدث عن هجرة القبائل التركمانية، وعن سليمان شاه، وعن تفرّق القبيلة بعد موته، مليئة بالتناقضات، وتفتقر إلى التماسك الزمني والجغرافي. وتُصوّر هذه القبائل أحيانًا بوصفها قوة مؤسسة، وأحيانًا أخرى بوصفها جماعاتٍ مهاجرة تبحث عن البقاء، بل إن نشأة الإمارة العثمانية نفسها تُقدّم في بعض الروايات باعتبارها قائمة على الغزو والسلب، وهو ما يتناقض مع الصورة المثالية التي تحاول السرديات اللاحقة ترسيخها. وهنا يظهر الخلل المنهجي بوضوح بتاريخٍ يُعاد بناؤه من رواياتٍ متأخرة، لا من مصادر معاصرة.

من أكثر القضايا إثارةً للجدل مسألة عقيدة أرطغرل والقبائل التي ينتمي إليها. فالدراسات التي تناولت هذا الموضوع تشير إلى أن القبائل التركية في تلك المرحلة كانت تدين بعقائد الشامانية أو ما يُعرف بـ"كوك تنجري"، وهي منظومة دينية تختلف جذريًا عن الإسلام في بنيتها ومفاهيمها. وقد طرح الباحث مصطفى محمود زكي تساؤلًا مباشرًا: هل كان أرطغرل مسلمًا أصلًا؟ وهو سؤال لا يأتي من فراغ، بل يستند إلى معطيات تاريخية تشير إلى أن الإسلام لم يدخل في البنية العثمانية إلا في مرحلة لاحقة، وربما مع عثمان نفسه، وهو ما يعني أن نسبة الإسلام إلى أرطغرل قد تكون إسقاطًا متأخرًا.

ويعزز هذا الطرح ما ذهب إليه الدكتور عبد الفتاح حسن أبو عليه، الذي يرى أن أرطغرل وقبيلته كانوا في طور بدائي من حيث المقياس الحضاري، وأنهم كانوا أقرب إلى الوثنية من أي انتماء ديني منظم. وإذا صحّ هذا التصور، فإن السردية التي تُقدّم أرطغرل بوصفه مجاهدًا مسلمًا، أو قائدًا يحمل مشروعةً إسلاميةً، تنهار من أساسها، لأنها تقوم على فرضية غير مثبتة تاريخيًا. بل إن بعض المؤرخين، ومنهم إدوارد جيبون، أشاروا إلى أن هذه القبائل كانت في مرحلة انتقالية، وأن احتكاكها بالسلاجقة هو ما مهّد لتحولها لاحقًا، لا أنها كانت تمثل امتدادًا إسلاميًا منذ البداية. وهنا تتكشف مفارقة عميقة؛ بأن السردية التي تُقدّم بوصفها أصلًا، قد تكون في الحقيقة نتيجة. إضافةً إلى إن إعادة تشكيل شخصية أرطغرل لا يمكن فهمها إلا في سياقٍ أوسع، يتعلق بتوظيف التاريخ في بناء الهوية. فحين يُعاد تقديم شخصية غامضة بوصفها بطلاً مؤسسًا، ويتم ربطها بالدين، فإن الهدف لا يكون معرفيًا بقدر ما يكون تعبويًا. إنها عملية تحويل التاريخ إلى أداة.

ولهذا، فإن محاولات "ترميم" تاريخ أرطغرل لا تتوقف، لأنها لا تنطلق من نقصٍ في المعلومات فقط، بل من حاجةٍ مستمرة لإعادة إنتاج هذه السردية بما يخدم الحاضر. وفي النهاية، يبقى تاريخ أرطغرل مثالًا واضحًا على أزمة عميقة في الكتابة التاريخية، حين يتحول الغموض إلى يقين، والرواية إلى حقيقة، والأسطورة إلى مرجعية. فالدراما قد تنجح في الإقناع، لكنها لا تصنع تاريخًا. والسردية قد تترسخ، لكنها لا تغني عن الدليل. ويبقى السؤال معلقًا: هل نحن أمام تاريخ حقيقي لم يُكتشف بعد، أم أمام أسطورةٍ كُتبت بإتقان حتى بدت كأنها الحقيقة؟.

1. أحمد متولي، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (القاهرة، إيتراك للطباعة، 2002).
2. إسماعيل ياغي، تاريخ الدولة العثمانية (الرياض: مكتبة العبيكان، 1995).
3. عبدالفتاح أبو عليه، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير (الرياض: دار المريخ، 2005).